تاريخ الارسال:2018/03/31 تاريخ النشر : جوان 2018

خطاب النهضة وسؤال المآل في رواية "الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء " للطاهر وطار مقاربة سردية

د. عبد الله بن صفية
جامعة برج بوعريريج

ملخص:

يسعى هذا العمل إلى تسليط الضوء على الدور الذي يؤديه النص الروائي العربي باعتباره دالا ثقافيا بقدر ما يضمر المستقبل بقدر ما يعليه، كما يسعى إلى الكشف عن تشكلات هذا المستقبل وتمظهراته النصية ودلالاته السياقية النهضوية، متناولا بالدرس المنهجي، وفي أطر سردية، رواية الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء للروائي الجزائري الطاهر وطار، لتكون منطلقا أساسيا في تحديد سياق العمل، ومتحكما قاعديا وصارما في الوصول إلى النتيجة وتفعيل المقاربة.

الكلمات المفتاحية: السرد، الرواية، المستقبل، النهضة.

Abstract:

The present study aims to highlight the role of the Arabic Novel as being a prospective cultural signifier that conceals the future as much as it reveals it, and to uncover the different shapes of the future, its textual forms and its contextual significations through approaching, by means of a scientific method and within a narrative framework, the novel of 'The Saint Attaher raising his hands to supplicate' (Al Ouali Attaher Yarfaa Yadayhi Bidouaa) that is considered as the basis of any analysis conducted to reach the desired objective results .

تقديم:

الأدباء ركن من الأركان الطليعية داخل المجتمع، وأعين تعي من خلالها الأمم واقعها، وتتطلع إلى مستقبلها، فهم رواد المناطق البِكر التي لم يسبق إليها أحد، ومفترعوها الذين لطالما حاولوا استكشاف الأفق والتطلع إلى بعيده، وتبعا لذلك صار الأدب لمن يريده الأرضَ النابية عما دونها، والتي يستطيع باعتلائها القارئ تشوّف وتبصر الآتي والتنبؤ به، واليدَ المعينة التي تُمَوقِع نفسها فوق الجبين لحدِّ المدّ وتوصيف المدى بغية استشعار ما سوف يفضي إليه الواقع من أحداث ورؤى.

وإذا كان الاستشراف، وتوقع المستقبل، واستلهام الأحداث المقبلة ينبع أساسا من الرؤية الفكرية والفنية للأديب عبر الوسائط الثقافية المنتجة لنصه، فمن المعقول جدا القول بأنّ للأديب العربي وعيا عميقا بالأمر، فهو صاحب باعٍ طويل مع المستقبل؛ المستقبلُ القابع في ذاته من خلال زمنه النفسي والمتجسد في أعماله تبعا لذلك، ولَلْعودة إلى نصوصنا الروائية العربية خير دليل على ذلك، والأمثلة من الأعمال أكثر من أن تحصى.

ورواية "الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء" هي واحدة من النصوص الأكثر استشرافا للمستقبل، فبغض النظر عن شكلها الطازج وأحداثها الساخنة وعوالمها المتمردة عن الأساليب الروائية عامة، فقد استطاعت أن «تقفز فوق الأوقات غير المجدية»[1] إلى المستقبل العربي كما تمثلته الذات الناصة لتصور جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية من زوايا مختلفة، مما جعلها تحظى بمكانة مميزة في المكتبة السردية العربية الاستشرافية. وهو السبب الذي حدا بهذا العمل إلى السعي لاستجلاء هذا المستشرف وما يشترطه نهضويا في المستقبل، وطرائق توظيفه، وذلك بمساءلة بنية الرواية من خلال ما تمنحنا إياه من علامات دالة تعبر عنها مكونات السرد.

أولا/ الذات المتطلعة وآفاق الإنجاز

الشخصية مكون سردي لا يعرف الثبات، متغيّر من عمل إلى آخر، وقواعده ومبادئه متعددة «بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها من حدود»[2]، وتحت هذا التعدد الذي هو بمثابة الإطار العام الحاكم والمنتج للعمل ككل، تسخّر بفنية لإنجاز الحدث، وللتعبير عن فلسفة معينة من فلسفات الحياة، وعن نظرة مخصوصة إلى القادم من الزمن، النظرة التي تأتي متساوقة مع طبيعتها المادية والنفسية، وطبيعة وعيها بالواقع النصي الذي تسعى إلى تغييره وفق منظورها الخاص.

واستشرافات الشخصية في مجملها نابعة عن قلقها إزاء المستقبل، وعن مصيرها الذي لا يفتأ وينقلها نحو الأمام في مسار زمني متقطّع يكسّر رتابة الزمن الطبيعي ويتخطاه [القدرة التي تفيض عن ذات المؤلف فتوهب للشخصية]، فتتمثل المستقبل المنشود الذي ترى فيه ذاتها وغيرها ممن تجمعها بهم علاقة معينة، ويوحدها معهم الهمّ الواحد والمصير المشترك.

وللمكانة التي تميّز الشخصية الحاملة لرؤية مستقبلية معينة، نجد أنّها ما تلبث حين مقابلتها بين الموجود والمطلوب، أي بين الحاضر والمستقبل، حتى تسعى إلى الفوز بعالم بديل يقوم على ما تريده، وإنّ ذلك ليحملها «حملا على إقحام الكون كما يجب أن يكون في تجربتها الذاتية، بممارسته كحالة نفسانية أو بتحويله إلى تجربة وجدانية تعاش بالفعل وترمي إلى تحميل العالم الخارجي ما انتهى إلى تحقيقه من غايات. ومعنى ذلك أنّ جملة الأفعال المجسمة للحركة في الرواية تتمّ وتتحدد قيمتها ويتقرر اتجاهها بمقتضى نوع المستقبل المنشود»[3] فتتحرك نحوه الشخصية في مسار موجّه. وعن نجاح الشخصية في تحقيق مبتغاها أو فشلها فيه، يلجأ الروائي عادة إلى وضع حدٍّ ختامي تنتهي إليه هذه الشخصية، يختاره بفنية ليتناسب مع الرؤية التي انطلقت منها، وليتساوق وطبيعة المستشرف المتطلع إليه، مما يضع الشخصية في وضعية وصول، لا نهاية للمستقبل دونها؛ وضعية تؤطر التفكير في القادم من الزمن وتكفه عند نقطة معينة، تثري الدلالة وترصد لنا أمداء المستشرَف.

ومن أجل استشفاف هذا المستشرف في رواية "الدعاء"، سأحاول الكشف عما تنشده الشخصية الفاعلة في النص، وما تريده لمستقبلها، لأسعى فيما بعد إلى الكشف عن نهايات هذا المستشرف من خلال ما آلت إليه الشخصية في أوضاعها الختامية، وما آل إليه مبتغاها، وذلك بتتبع سلسلة الأحداث التي تحمل في موضع معين هذه النهايات.

1/ آفاق الشخصية:

لقد استخدم الروائي من أجل تسريد الحاضر واستشراف المستقبل إضافة إلى شخصية بلارة، والمراسل عبد الرحيم فقراء، صوت المراسل/المثقف الذي اكتفى بنقل الوقائع وسردها، شخصية صوفية هي بمثابة «الشخصية الجذع»[4] في الرواية، اختارها الروائي بسماتها التي سيعرض لها البحث لما قد ارتأى فيها من قدرة على الاستشراف، توائم طبيعتها الصوفية المتلذذة بالألم؛ فالواقع العربي مؤلم ومستقبله أألم – حسب النص – ولا قبل لأيّ شخصية روائية أخرى، بصورة مغايرة، على تحمّل ما ستتحمله شخصية الولي، هذا إضافة إلى مشروعها المستقبلي الذي يتوافق وجوهرها القائم أساسا على رؤية ومرجعية دينية.

وبالبحث في خلفيات هذا المشروع، نجد أنّ رواية "الدعاء" قد ارتبطت في منجزها السردي بلحظة حرجة يعيشها الوطن العربي والإسلامي، تجسدت لـ"الولي الطاهر" بعد متابعته للتحولات المختلفة التي لحقت هذا الوطن عبر شاشته الصوفية العملاقة في موجة من السواد تشبه إلى حدّ كبير القربة المخرقة، لونا وشكلا، اجتاحت أرض المسلمين فلم يعد أحد يرى شيئا غير الظلام، يقول المراسل عبد الرحيم فقراء « أحدثكم وكما لو أنّ عصابة سوداء على عيني، حتى أنّي لا أدري ما إذا كانت يدي أمامي أو خلفي. أين اليمنى، وأين اليسرى. إنني فعلا لا أكاد أفرق بين هذه وتلك »[5]

إنّ المتكأ الذي بنى عليه الولي مشروعه المستقبلي هو متكأ سوداوي موبوءَ تمَثله أولا في حالة الانسلاخ عن الذات، وحالة الاغتراب التي ترسخت معالمها لدى الأمة العربية والإسلامية، فكانت السبب الرئيس وراء تخلفها وتبعيتها. يقول «غريب أمر هؤلاء الأوربيين فمهما كانت أمميتهم، ومهما بدا من أوربيتهم ومهما غيّروا من تسميات وأشكال عملاتهم ونقودهم، فإنّهم يظلّون، يحملون في جعابهم وطنيتهم الحادة، يمتّنون بها لحمتهم ويؤكدون هويتهم. هذه الهوية التي نسخر نحن منها، محاولين قدر الإمكان، التخلي عنها والتمظهر بهويات سادتنا المستعمرين»(الرواية. ص: 58).

لقد فهم الولي هذا الراهن جيدا ووعاه، قبل أن يقدِّم حلّه للأمة العربية والإسلامية؛ قبل أن يختار الفرار بدين الله من هذا السواد إلى فيافي الطاعة والعبادة، حيث المقام الزكي، حيث الطوابق السبعة المليئة بالإيمان، حيث المريدون والمريدات، حيث الأرض الطاهرة المستجاب فوقها للدعوات، وكأنّ الرواية بهذه الصورة تتمثل التاريخ في شخصياته الكثيرة التي فرّت بدينها إلى حيث ينعدم الوباء ولا يصل إليه، إلاّ أنّ ما يميز الولي عنهم هو اشتغاله على مشروع مناهض، ومقاوم، رافض للواقع، سعى من خلاله إلى إحلال مجتمع جديد يمكنه ردّ الاعتبار للأمة العربية والإسلامية مرة أخرى .

أراد الولي من هذا المقام التأسيس لـ «أمة محصنة» تحترم شريعتها وتكافح لقيام نظام عادل، وذلك من خلال إنجاح مشروع المائة مريد ومائة مريدة، ليكوّنا فيما بعد جيلا جديدا صالحا تحكمه المبادئ التي سيلقّنها له، فالعالم العربي والإسلامي – حسب الرواية – يعيش حربا أهلية مستمرة سواء أكانت كامنة أم نشطة، تعكس هذه الحرب زوال الإيمان من الداخل بالقيم والأهداف التي قام عليها وبرّر بها وجوده حتّى الآن، وهو ما يجب تعليقه حسب الولي والبداية دونه من جديد، وذلك ببعث أمة إسلامية واراها الركام نتيجة الحاضر المعتم، بالإضافة إلى ركام الأجيال، وركام التصورات، وركام الأوضاع، وركام الأنظمة. وبالرغم من وعي الولي بأنّ المسافة بين محاولة البعث وبين تسلم القيادة مسافة شاسعة، وأنّ اللحاق بالركب الغربي بعد سنوات طويلة من نفث الأرواح المسلمة في الأجساد الشابة الفتية صعب للغاية، إلاّ أنّه قرّر المحاولة والبدء من جديد، بمشروع قد يصل عمره قرونا ليحصد ما يتمناه ويرغب فيه، فالتصور الإسلامي فرض على الولي البحث على وسيلة للكفّ من انتشار الوباء/السواد، ولأنّه لم يستطع فعل ذلك نتيجة للأسباب الآنفة الذكر، فقد قرّر بناء جيل قرآني جديد يتقمص وسطه دور المهدي أو المنقذ، الذي سيهب المسلمين مرة أخرى نورا يرسم لهم الطريق نحو الاستخلاف في الأرض، نحو الحياة التي من المفترض أن تقوم بالعقيدة السليمة والإيمان الراسخ، والثقة في الله.

2/ متواليات الإنجاز وسؤال المصير:

إنّ للمتوالية السردية بمنطلقاتها وخواتيمها ناظما يؤطرها، وحاكما يرسم مسارها الزمني هو مبدأ السببية، فالرواية في غالبها الأعم "مجموعة من الأحداث أو من الأفعال السردية تتوق إلى نهاية، أي أنّها موجهة نحو غاية ... هذه الأفعال السردية تنتظم في إطار سلاسل تكثر أو تقلّ حسب طول أو قصر الرواية، كل سلسلة يشدّ أفعالها رباط زمني أو منطقي"[6].

والعلاقة السببية هي علاقة موجَهَة تربط بين حدث وآخر، ربطا «يمكن للعقل قطعه من الأسفل إلى الأعلى أو من الأعلى إلى الأسفل، بالتراجع أو التقدّم»[7] وهذا شأن العلاقة بين السبب والنتيجة، أو «ببساطة بين المقدم والتالي بالمعنى الزمني لهاتين الكلمتين»[8]، ولهذا ينبغي التمييز بين ضربين من الأحداث، فبعضها يتجه نحو ما أحدثها وبها يمكن للقارئ أن يصعد من النتيجة إلى السبب، ومن الحاضر إلى الماضي، وبعضها الآخر يمكن أن يعدّ منبئا؛ أي بشائر تخبر عما يحدثها، وبها يمكن للقارئ أن ينتقل من الأسباب إلى النتائج، أي من الحاضر إلى المستقبل، مشغّلا «مبدأ التقدم في خطابها من خلال الزمن الإحالي للأحداث، حيث تتلو أزمنة الإحالة بعضها البعض في مسار تدرجي دينامي»[9].

بتتبع مسار الأحداث في الرواية، نجد أنّ شخصية الولي فيها قد انطلقت من وضعية مبدئية هي محاولة الهروب من الوباء لإنشاء جيل جديد يقهر الطارئ القادم من الدول الغربية، وفي أقلّ تقدير منعه من التفشي في كلّ ربوع الوطن العربي والإسلامي، وعبر سلسلة الإنجازات التي قامت بها، ينتقل النص بشخصيته الرئيسة إلى الفشل في تحقيق المبتغى نتيجة لسوء تقدير من طرف الولي؛ «العقل الباطن للإنسان المسلم المعاصر، في تجلياته العديدة» (الرواية. ص: 9)، وقد تضمّنت هذه المتوالية نقطة تحول من النجاح إلى الفشل كان سببها شك الولي المفرط في طبيعة بلارة، فاختلط عليه الأمر ولم يعد يتبين شيئا، أو يميز بين الصديق والعدو، فكانت رحلة التيه جزاءه، وبعدها فشل مشروعه المستقبلي بموت المريدين والمريدات، وما يؤكد هذا الفشل أكثر ما يمكن نعته باللاموقع الذي حظيت به الدول العربية والإسلامية في المستقبل الذي رآه من خلال شاشته بعد عودته إلى المقام، حيث استبق الزمن فرأى البترول العربي ينفد، ووضع هذه الدول البترولية غير مستقر، وخارطة العالم تتغير ... وهو ما صوّره في استشراف كليّ عام ورد في الرواية على النحو التالي:

الإمارات: مغادرة كل الوافدين الأجانب منها.

السعودية: اكتست كل قمصانهم وكوفياتهم اللون الأزرق المائل إلى السواد [رمز العمل].

الكويت: فرار الكويتيين من أرضهم نحو إسبانيا حيث القصور التي قد بنوها هناك.

مصر: سيطرة المتشددين دينيا على الحكم.

فلسطين: استقلال الدولة، ورجوع فتح وحماس إلى سيناريو التشبث بالكرسي.

الو.م.أ: - الاستلاء على كل أموال العرب المودعة في الولايات المتحدة الأمريكية.

- الإعلان عن الهزيمة أمام الإرهاب العالمي، وكذا هزيمة الديمقراطية بشكلها الحالي.
- التصريح بالكيفية الحقيقية التي توفي بها "بن لادن"، وأنّ القاعدة مجرد فزاعة سياسية.
- سحب كل القوات الأمريكية من المنطقة العربية.

أوروبا : - إيقاف كل اتصال جوي بالعالم العربي وطرد كل العرب الوافدين حديثا إلى أوروبا.

- تقنين استخدام النفط بإنشاء بطاقات تموين خاصة.
- استعادة كل الجيوش المتواجدة في المنطقة.
- رفض التعامل بالدولار وإقرار اليورو عملة عالمية.
- إعلان باريس عاصمة موحدة للقوة الأوروبية المنفصلة انفصالا تاما عن الو.م.أ
- تجميد كل الأموال العربية والاستلاء عليها بصرفها لصالحها نظرا للديون المتراكمة عليهم.

إسرائيل : حل الدولة العبرية وعودة أهلها مرة أخرى إلى رحلة التيه بعد زوال الإمبراطورية الأمريكية.

عالميا : - تجاوز سعر البترول الألف دولار.

- تقهقر قيمة الدولار في الأسواق العالمية.

حين اختار الروائي مشروعه الديني المستقبلي أضمر قبل كتابته الفشل الذي سيعتريه بالنظر إلى راهن المجتمع العربي والإسلامي، ولو تأملنا جيدا هذه النهاية وأردنا الانتقال منها إلى الواقع لوجدنا أنّ الفكرة مؤسسة تأسيسا جيدا، فكلّ الحركات الإسلامية الناهضة لإحياء تعاليم هذا الدين المطموس نوره بشكل أو بآخر، ولإعلان كتابه مصدر تشريعها ومبادئها المناهضة للسائد اليوم قد فشلت فشلا ذريعا، وقد أورد الروائي لذلك مجموعة من الأسباب منها ما تعلق بغياب الرؤية

الواضحة المتمعنة من طرف هذه الحركات، وهو ما عبر عنه بمحاولة اغتيال بلارة وبرحلة التيه التي خاضها الولي فقتل المجندين والأبرياء دون تمييز، ومنها ما تعلق بوجود من يعيقها في ظلّ غياب الأنفة والسلام الذي من المفترض أن تنتش في كنفهما بذرة هذا المشروع من جديد.

وبالرغم من الإعلان عن هذه النهاية إلاّ أنّ "وطار" قد ترك خاتمته مفتوحة على كل الاحتمالات ففشل بذلك مشروع الولي فشلا جزئيا لا كليا فكان بمثابة نكوص فقط لأنّ الشخصية لم تنته وظيفتها النصية بالموت، كما أنّها بقيت على حالها؛ غير راضية على واقعها وعلى ما ستؤول إليه الأمور بعد نفاد البترول، تطلب التغيير وتسعى إليه، ولا أدلّ على ذلك من طلبه نزول بلارة مرة أخرى لإحلال نسل جديد معها، وذلك حين قال: «انزلي المقام آمنة مكرمة يا بلارة» (الرواية ص: 27)، والتي ستتحقق كلّ أشراط نزولها مثلما رأى ذلك الولي.

ثانيا/ المستقبل وتخطيب المكان والزمن

يعدّ الزمن والمكان من المكونات الأساسية في بناء الأعمال الروائية، فالرواية بما هي ناقلة للحدث ومصوّرة للحالات والوضعيات التي تتعلق بمختلف الشخصيات «تقتضي ضرورة نقطة انطلاق في الزمن ونقطة اندماج في المكان»[10]، وعليه فقد جاء المكونان في النص الروائي بصورة متلازمة يستدعي فيها أحدهما الآخر؛ فإذا كان «الزمن يمثّل الخطّ الذي تسير عليه الأحداث، فإنّ المكان يُظهر على هذا الخط ويصاحبه ويحتويه، فالمكان هو الإطار الذي تقع فيه هذه الأحداث»[11]. وبالرغم من أنَّ هذا البحث سيقدّم كلاًّ منهما منفصلا عن الآخر للأهمية والخصوصية السردية، بحثا في دلالتهما وما تحمله من نظرة مستقبلية، إلاَّ أنَّ الإقرار باندماجهما أمر مسلم به مسبقا، إلى جانب التسليم بالنقص الذي يعتري كلّ دراسة تهملهما إفرادا أو جمعا.

1/ الفضاء المكاني ودلالات المستقبل

إنّ القائم بالسرد لا يشيّد أمكنة عمله على الصدفة، بل يقيمها على نحو مخصوص ليحيل بها إلى ما يريده من دلالات استشرافية يبتغيها من النص ككلّ، فإنّه يقوم بتوزيعها بما يتوافق ووضعيات الشخصيات في العمل، ومع منشودها الذي تريده أنّ يتحقّق، والنهايات التي آلت أو ستؤول إليها، مما يعدّد الأمكنة بحسب عدد هذه الشخصيات وينوعها بتنوع منشودها ومآلها، وهو التعدد والتنوع الذي سيشكل للقارئ فيما بعد نسقا مترابطا من الأمكنة النصية المحمّلة بدلالات استشرافية جزئية يتحصل بلملمتها على ما يساعده على فهم المبتغى الاستشرافي الكلي للعمل، وهو ما يمنح المكان موضعا استراتيجيا يفرضه «كموضوع للفكر الذي يخلقه الروائي بجميع أجزائه»[12].

لقد تبين لنا من خلال العنوان السابق أنّ الولي الطاهر شخصية متطلعة تسعى برؤية صوفية إلى بعث الروح من جديد في الأمة العربية والإسلامية، في ظلّ حاضر أسود محتقن، ومستقبل بائس تشهد فيه هذه الأمة كلّ ألوان الذلّ والهوان إن لم ينجح مشروعه. وقد اختار القائم بالسرد لهذا المشروع ثلاثة أمكنة تجريدية سريالية، يصعب على القارئ إدراكها، شكّلت خلفية رمزية وطّنت المستشرف أكثر وجعلته على صلة وثيقة بالواقع، هذا إضافة إلى ما حملته من دلالات مستقبلية جزئية سيسعى البحث فيما يلي إلى استجلائها.

- الفيف: بالرغم من أنّ الفيف لم يأخذ المساحة الوصفية نفسها التي أخذها في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، إلاّ أنّ مكانته الدلالية وأهميته في هذه الرواية ليست أقلّ قيمة من سابقتها، فالفيف في رواية الدعاء كان هو المنجى والمأوى مثلما هو في رواية العودة، فهو المساحة المحيطة بالمقام، هو العازل الذي يحول دون الوباء القادم مما هو خلفه، يقول

الولي: «ارتأيت أنّ الهروب بدين الله، عنصر مهم في المواجهة. نقيم في هذا الفيف، ونتضرع للمولى عساه يفرج الكرب» (الرواية. ص: 25)، ويقول في موضع آخر: «نهرّب ما نقوى عليه من الشبان إناثا وذكورا، نلقنهم دينهم، ونزوجهم، ونعمر بهم الفيف، منشئين أمة محصنة»(الرواية. ص: 26). وبذلك كان الفيف الدرع الواقي في حاضره، والأرض الطيّبة للمستقبل، فهو وطن النسل الجديد والجيل المحصّن بدينه. واستخدام الراوي لكلمة الفيف تدلّنا على اتساع المكان وانفتاحه، فالفيف هو: «المفازة التي لا ماء فيها مع الاستواء والسعة»[13]، وهو بذلك إشارة إلى الحماية المطلقة من الوباء حاضرا ومستقبلا، وإلى أنَّ المساحة صالحة بانفتاحها وبُعدها وانفصالها عن العالم والعالم العربي لإنشاء وطن بنسل جديد يتوسّع حيثما أراد على رقعة جغرافية واسعة إلى حدّ يضمن بقاء الانفصال إلى أمد بعيد.

لقد تطعّمت الرواية دلاليا بخصوصيات هذا المكان، فصورة الفيف جاءت متوافقة مع الرؤية الكلية لمستقبل الأمة مثلما يؤطرها مضمون النص، فنجاح المسلمين والعرب رهن بالابتعاد عما بثَّه الغرب الأوربي من وباء، ومستقبلها من حاضر ملؤه الكفاح بعيدا عن أيّ دنس يمكن أن يلحق من سيملؤون الفيف ويعمّرونه لتبدأ منه رحلة العودة لإخراج المستعمر ونفث البياض بدل السواد. والرواية بهذا تشي بأنّ نجاح الأمة يستدعي ضرورةً انكفاءها على ذاتها والانطلاق من جديد برؤية إسلامية لا تشوبها شائبة، يعتمدها الولي/ المغيّر لبناء وتوجيه الجيل الصاعد.

- المقام الزكي: هو أهمّ مكان في الرواية، لأنَّه مورد كل ما حملته الرواية من أحداث، والمقام قصر شامخ بسبعة طوابق، كلُّ طابق مخصّص لغرض معين، يقول الولي: «جعلناه سبعا طباقا، تحتضنها مئذنة ترتفع عنها بنصف علوها، فكان كإرام ذات العماد أو أكثر»(الرواية. ص: 26)، وقد خصِّص الطابق السفلي الذي ينفتح عليه الباب للزوار بجناحين أوّل نسوي وثان رجالي، ومقصورة تتوسطهما حيث يتخذ المقدم مكتبا في موقع للاستقبال، أمّا الطابق الذي يليه فخاص بتعليم القرآن الكريم والشريعة، وبعض العلوم، يتسع لأربعمائة طالب وطالبة. والذي يليه بجناح واحد مخصَّص للصلاة، الطابق الذي فوقه مرقد للمريدين، والذي فوقه للمريدات، ثم الطابق السادس وهو طابق مقسم إلى قسمين نصف للمؤن، ونصف للشيوخ حيث ينامون ويعدّون الدروس، أمّا الطابق السابع والأخير فهو للولي وحده، حيث خلوته وطريقه إلى ربّه.

لقد كانت بداية السرد من مدخل المقام حيث سمع "الولي" بعد رحلة التيه التي خاضها صوتا مألوفا هو صوت "بلارة" يدعوه للدخول، دلف الولي فرأى ما طرأ على المكان من تغيّر فـ «القاعة الفسيحة مغمورة بالرمل، وبتماثيل حجرية لرجال في جناح، ولنساء في جناح ثان تنتصب على مقاعد من خشب، عليه نقوش جميلة وموثرة بقماش مطرّز بالذهب، تتوسط الجناحين مقصورة يتربّع فيها شخص من طين، لحيته في حجره، أمامه منضدة صخرية، فوقها أدوات وسجلات تحجرت، يعلوها غبار أصفر كثيف»(الرواية. ص:12)، وقف الولي عند هذا المشهد ثمّ انساق نحو السلالم يتبع الصوت الساحر الذي دعاه مرات عدة «اصعد يا مولاي» (الرواية. ص:12)، ليقف عند مشهد آخر، في قاعة فسيحة، «تعمرها جثث تماثيل خشبية، لشباب في سنّ متقاربة على ما يبدو، ممتدة على أسرة من صخر كأنّها لقبور أثرية ... عدّ الأسرة. مائتان بالتمام والكمال»(الرواية. ص: 13). سمع الولي النداء من جديد فصعد فوجد نفسه في قاعة شبيهة بالتي كان فيها، إلاّ أنّ التماثيل الممددة على الأسرة «كانت من شمع أو من مادة شبيهة على ما يبدو ... عدّ الأسرة فكانت مائتين وواحدا، أحدها فارغ»(الرواية. ص:13)، واصل الصعود إلى أن وصل إلى الطابق السادس حيث وجد جرارا مكلسة وجثثا «محنطة تفوح منها رائحة الرطوبة والتراب، ويبدو أنّها لمشايخ أو أئمة كان على رؤوسها عمائم ذات ألوان مختلفة» (الرواية. ص:13).

لقد وصف الراوي المقام من خلال ما يراه "الولي" طابقا فطابقا إلى أن وصل إلى الطابق السابع حيث خلوته، والمكان الذي سيستعيد ذاكرته فيه، وبعد أن صلّى ركعتين استغرقتا دهرا وجد أنّ المقام لم ينجح في لمّ الشمل وإحلال النسل الجديد، فالنوافذ والأبواب مشرعة على الفيافي التي لم تعمر بعد والجثث في كل طابق من الطوابق، وهي العلامة على الوباء الذي حلّ بالمقام في غيابه، وهو ما يعني فشل مشروعه المستقبلي.

لقد كان المقام في الرواية بمثابة المكان المغلق المختار، و بهذا يكون قد أخذ صفة من صفات البيت، مثلما تصوّرها عادة النصوص الروائية، فالبيت أو المقام ليس مجرّد ركام من جدران وأثاث إنّما المسألة الجوهرية فيه مثلما قال "غاستون باشلار" «هي اعتباره مكانا يمارس فيه الإنسان أحلام اليقظة والتخيل»[14]، فالشخصية إذن تختار بعض الأمكنة الضيقة المغلقة لأنّها تجد فيها تأثيرا معينا وألفة لاشعورية تطمئنها حاضرا ومستقبلا، ففيها تفكر وتتنقل بحرية تتذكر وتستشرف.

ولخصوصية الطابق السابع من المقام والمخصص لخلوة الولي نجد أنَّ الراوي قد أضفى عليه ملامح تجريدية عجائبية، تتناسب وطبائع الولي الصوفية فكان «قاعة ليس لأبعادها حدود، كلّما امتد البصر، امتدت، إن طولا و إن عرضا، وإن علوا. كلّ ما فيها هلامي، شبيه بأخيلة النائم، يشعر المرء فيها بأنه، يتواجد في كلّ ذرة مما يقع أو وقع عليه بصره، كما يشعر بملئه لكل الأزمنة، إلى درجة يحسّ بالانعدام، كائن وغير كائن، هو وليس إطلاقا هو» (الرواية. ص: 18)، وهو ما يعني الاتصال الكلّي بالمكان والتماهي المباشر بالزمن بأبعاده الثلاث إيذانا بالحالة الصوفية التي ستقود الولي إلى المكان الأرحب ممثلا بالعالم.

- العالم: "انطلاقا من المستوى التصوري لتجربة التصوف، يلاحظ أنّ الكون عامة لا ينفصل عن الصوفي، بل هو ذاته وجذره الوجودي، ولذلك فإنّ علاقته به ما هي إلاّ علاقته بنفسه وبكونه الخاص. أي أنّ الإطار الموضوعي لوجود الصوفي لا يخرج عنه. وهذا ما يتأكد في سعيه لاستعادة الموضوع من حيث هو ذاته المنشطرة"[15]، لذلك نجد "الولي" ما إن صلّى ركعتين حتّى دخل في غيبوبة نقلته من اتصاله بالمقام إلى اتصاله بالعالم وذلك عبر «شاشته التي لا يحدّها نظر» (الرواية. ص: 33) فرأى ما يحدث حاضرا، وما سيحدث مستقبلا، للعالم أجمع، برؤية مركزها العالم العربي والإسلامي قياسا بطبيعة التحولات التي لحقته أو التي ستلحقه.

هذا العالم الذي أصبح مثل الكرة تتقاذفه الأرجل في أمكنة متعددة، وهذه الأمكنة هي التي سيعمل المراسلون على تغطية الأحداث الجارية بها ونقلها إلى المشاهدين. وأوّل ما سيبدأ المراسلون به هو الإشارة إلى السواد الذي غطّى العالم العربي والإسلامي، وبين الفينة والأخرى سيتمّ التنقل من مكان إلى آخر، فحجم القضايا الساخنة هي التي فرضت على الرواية أن تتسع أماكنها لتطال العالم كله.

والبداية كانت من فلسطين فدول المغرب، فدول الخليج، فدبي والسعودية والكويت فمصر فسوريا فاليمن فالعراق، فكل هذه المناطق العربية قد شهدت الوباء، وزد على هذا نرى أنّ الراوي أيضا يشير إلى بعض الأمكنة الأخرى مثل أوربا وأمريكا وإسرائيل مستثنيا باقي الدول الأخرى، وفي هذا إشارة إلى أنّ الأماكن العربية، وبخاصة العراق وفلسطين ودول الخليج ومصر، التي اعتبرها الروائي مواطن للأطماع والصراع، أمّا إشارته إلى أوربا وأمريكا وإسرائيل فقد كانت بهدف التنبيه إلى أن هذه المناطق كانت سببا في ضياع العرب وفرقتهم وتخاذلهم وسببا أيضا في انتشار مآسيهم ومحنهم.

ونستشف من كلّ هذا أنّ الراوي قد حاول قدر الإمكان توسيع رقعة روايته من أجل أن يتسع الحديث عن العالم بأكمله، هذا العالم الذي بات يعاني من عدة انقسامات، عالم قوي يتمثل في دول أوربا وأمريكا، وعالم ضعيف لا حول له ولا قوة،

ممثل نصيا بدول العالم العربي، العالم الذي حاول الكاتب أن يسلّط عليه الضوء من مختلف جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية حاضرا ومستقبلا.

وبالنظر إلى المدلول الاستشرافي الجزئي لكلّ مكان من الأمكنة الثلاث، وإلى القيمة الرمزية التي حظي بها كلّ منها، جاز القول بأنّ الولي قد انطلق من المكان الواسع الموبوء ممثلا بالعالم نحو مكان مغلق ضيّق هو المقام مرورا بالفيف الذي كان بمثابة العازل بينهما، فالمكان الأوّل كان برمزيته دليلا على نتائج الانفتاح على الآخر وما استتبعه هذا الانفتاح من وباء، لذا وجد الولي الحلّ في الهروب إلى الفيافي وإقامة مشروعه المستقبلي هناك، حيث الانكفاء على الذات لبناء أمة محصّنة بنسل جديد ينهض على تعاليم الدّين الإسلامي، فالانغلاق؛ انغلاق المقام، هو أساس الأمن والأمان، والصورة المثالية للمكان الذي يسمح [قبل احتكاك أهله بالعالم مرة أخرى] بتكوين جيل يعرف أصوله، ويؤمن بهويته، ويفرق بين الثابت والمتحول في شخصه.

وبالرغم من فشل مشروع الولي نتيجة لرحلة التيه التي خاضها إلاّ أنّ العودة إلى المقام مرة أخرى ودعوة بلارة من جديد لإحلال نسل آخر يخلف سابقه ما هو إلاّ تأكيد على أهمية الانغلاق والاكتفاء بالأصيل لبناء الأجيال المسلمة الصاعدة.

2/ السرد الاستشرافي ودلالاته:

إنّ الزمن الروائي زمن متقطع، في حالة صيرورة وتحوّل، وتشكلاته البنائية من أكثر القضايا صعوبة، ولعلّ محاولة هيكلتها في أنساق تجسد سيلانه، يمكن دراستها وتأطيرها اعتمادا على نسج الحركة بين زمن الحكاية وزمن الخطاب، حيث تظهر قدرة المؤلف في بناء الزمن الروائي باعتباره حركة داخل النص تتسم بالتحوّل والتّشكل حسب معطيات الرؤيا؛ إذ «إنّ للخطاب الروائي تاريخه الخاص، لا بمعنى التتابع والتوالي الزمني، وإنّما بمعنى ما يعتري هذا الخطاب من تحول وتغير وتطور في بنيته الدالة»(16)

ولأنّ ما يهمنا هو المستشرف فسيحاول الباحث رصد المستشرف الكلي في الرواية، بمحاولة الإحاطة بتبلورات أبعاد الزمن فيها (الماضي والحاضر والمستقبل)، واتخاذها شكلا ما يتوحد مع الرؤيا الاستشرافية الكلية للرواية، وذلك بتتبع المقاطع الزمنية الكبرى التي تؤطرها البدايات والنهايات، والفصول والأقسام.

لقد قسَّم "وطار" روايته إلى تسعة فصول معنونة تفسيريا أو دلاليا، وفي بعض الأحيان بعنوان مغاير على سبيل السخرية التي انطبعت بها الرواية ككل، ولمن يتمعن في النص من خلال تشكيلاته الزمنية فإنّه سيلحظ أنّ الرواية تنقسم إلى قسمين رئيسين : قسم أوّل بثلاثة فصول "التحديق في الزمن" "التأرجح المتقاذف" "العكس أصح"، وهو قسم مثّل زمنيا خلفية الرواية التي أسس عليها الروائي رؤيته المستقبلية، وقد جاء مغايرا للقسم الثاني أسلوبا ومضمونا، اعتمد فيه "وطار" على سردية الاسترجاع التي تحقق التوازي والمسايرة بين الماضي والحاضر، مستندا في ذلك إلى الذاكرة ومخزونها، إلى درجة وصل فيها إلى النبش وتسطيح الغائص، فوازى بين الولي الطاهر وبلارة من جهة وبين مسيلمة وسجاح من جهة أخرى، وقد جاء ذلك بعد صورة كرنفالية، هي أشبه بلياليي شهرزاد وشهريار.

لقد عمد الروائي إلى هذا الفعل ليؤسس للبعد الاستشرافي الذي يبتغيه، فصوَّر للقارئ حال العربي والمسلم ورحلات التيه التي خاضها، وعبر هذه الصورة الاسترجاعية التي بدأت بقول "بلارة": « أدخل يا مولاي» (الرواية.ص: 12)، دخل الولي الطاهر في (حالة) صوفية كان سببها الرئيس تغييره لفعل الدعاء الذي أَلِف صيغته منذ أن نجا بنفسه ومعتقده في الفلاة حيث بنى "مقامه الزكي".

ومن الفعل (نجنا) إلى الفعل (سلّط علينا)، يلج القارئ القسم الثاني من الرواية، وهو المكوَّن من عناوين ستة "رسالة من تحت السواد الدامس"،"ما نخاف ..."،"الإرهاب ينتصر"،"خذني معك"، "انقلاب السحر"،"ويل العراق يا مولية"، وقد سايرت الأحداث أفعالها السردية فيه، فتشكّلت بقالبها، وغدت مثلها تؤمن بالحركة من الطرف إلى الطرف النقيض، ومن الماضي والحاضر إلى المستقبل، الزمن الذي استشرف فيه "وطار" حال المسلم والعربي بعد نفاد البترول.

لقد جاء دعاء الولي بالنجاة في قوله "يا خافي الألطاف نجنا مما نخاف"، نتيجة طول تأمله في حاضر الأمة الإسلامية الذي لم يتغير، يقول: «يحدق الولي الطاهر في الشمس وقد اعتراها خسوف كلي فجائي لم ينتظره أحد ولم تترقبه مراصد»(الرواية. ص: 11). وبعد أن أدرك الولي أن لا متحرك ولا متغير إلاّ صورة الحاضر التي تزداد قتامة، والوباء الغربي الذي ينخر في الأمة الإسلامية بلا هوادة، رأى ورأت معه بلارة أنَّ الدعاء المضاد أهم، لأنَّه على الأقل سيضع حدًّا للخوف، وذلك بالتوجه إلى المستقبل بدل انتظاره، فكان منه الدعاء الثاني، بأن رفع يديه وقال: "يا خافي الألطاف سلط علينا ما نخاف"، وعليه جاء المتغيِّر باسوداده، بعد دعاء ظل الله «ينتظره منذ سقوط الدولة العباسية»(الرواية. ص: 29)، أي منذ سقوط الحضارة الإسلامية في المشرق، وعليه انفتحت صور ما سيحصل أمام الولي وما سيلحق الأمة في المستقبل وهو ما عرضت له الرواية في قسمها الثاني الاستشرافي الذي نقله إلينا المراسل عبد الرحيم فقراء، وتمّ العرض له في الفصل السابق في الجزء المخصّص للحدث.

وبسعي "وطار" إلى تركيب العالم المتخيّل بالعالم المستحيل وبالواقع المحتمل على سبيل تأثيثه بالحلم والانتقاء لعناصر الواقع، وباستثماره أسلوب الحكي الصوفي والتراثي في تشكيل البنية السردية للمحكي وجد الروائي نفسه بصدد تشكيل عالم جديد يقتص من تاريخ الأمة العربية والإسلامية بمثل ما يفعل مع حاضرها ومستقبلها، ففضح المستور الذي لطالما أخفاه الزمن وغيّبه لصالح هذه الأمة التي تخاذلت عن آداء دورها، وهو الأمر الذي استدعى الاستغناء عن الزمن الأرسطي والاستعاضة عنه بزمن الغيبوبة أو زمن الحالة القائم أساسا على الاستشراف أكثر من أي شيء آخر.

ثالثا/ مستشرف الشخصية وخطاب التقدم:

بعد هذا التحليل الذي هدف إلى تسليط الضوء على مستشرف النص، سيسعى البحث تحت هذا العنوان إلى استكمال المقاربة بربط نتائج التحليل السابق لتتمّ قراءتها معا عبر السياق الذي أنتجها وأطّرت به.

وبغية التوصل إلى مقولات ثابتة تتحكم في هذا المستشرف، وترسي دعائم الاطراد الذي من شأنه أن يرصد لنا أمداء الأفق الروائي ورؤيته التغييرية من أجل إحقاق ما يسمى بالتقدم، وكذا العوائق التي حالت دونه، كان لزاما اللجوء إلى ما تمنحنا إياه إيديولوجيا النص الروائي من تفريعات معرفية متصلة بالمستقبل، مبثوثة في المستوى العميق من النموذج المدروس. والمقصود منها بخاصة: إيديولوجيا السلطة، وإيديولوجيا الرفض والتغيير وإيديولوجيا التقدم.

1- بين أفق السلطة وتطلعات المجتمع:

إنّ القارئ الذي يستوقف مشاهد معينة في الرواية يلحظ جيدا أنّ السلطة من المقولات المهمة جدّا المتحكمة في المستقبل الذي استشرفته الشخصية، ومن الأسباب الرئيسة في المآل الذي وصلت إليه. وعن تمظهرات هذه السلطة في الرواية يمكن أن نجملها في شقين كبيرين هما: السلطة الحاضرة بقمعها والسلطة الغائبة عن أداء دورها؛ أمّا بالنسبة للأولى فهي السلطة التي لا تقبل الندّ، ولا تعترف بأخطائها، ولا بفشلها في تحقيق المنشود والمنتظر منها، فتنتهج العنف والقوّة ضدّ الآخر للتعويض على النقص الذي تعرفه جراء فشلها، وقد تستعمل لذلك شتّى السبل مثل: عمليات التعذيب، أو سياسة تغييب الهوية، أو

التصفية الجسدية، أو التغريب في المكان ... وغيرها، الأمر الذي جسده في الرواية التدخل الأمريكي العسكري في الأراضي العراقية وغير العراقية، وما انجر عن هذا التدخل من كسر للطموح العربي في النهضة والرغبة في التحرر بالقوة المادية، وذلك لأنّ منشوده يتعارض مع طموح الشخصية العربية والإسلامية من كلّ جانب، ولهذا أعلنت الشخصية الجذع رفضها له أو العمل لصالحه.

أمّا بالنسبة للسلطة الغائبة عن آداء دورها فهي مجموع الهيئات السياسية العربية منذ القدم التي لم تنجح إيديولوجيتها أولم تكرّس مبادؤها. وبشأن هذا الغياب سرديا فهو المعبّر عنه بانتشار الوباء في المنطقة العربية والإسلامية، الغياب الذي سيعبّر عنه الروائي بصيغة صريحة باستخدام لفظ السواد بعد أن انفتحت أمامه الشاشة الصوفية مجسدا الحاضر العربي القاتم الذي تسوده النزاعات المختلفة الداخلية والخارجية، وهو ما يعني الغياب عن الساحة التغييرية والنهضوية التي ينشدها المجتمع، يقول الروائي: «إنّ السواد هو الغموض الذي يسود العالم العربي، في العلاقات الدولية، وفي العلاقات العربية العربية، هناك تذبذب في المنطقة العربية يساوي فقدان الرؤية في البحر، وهذا واقع وليس افتراضا»[17]. وعن هذا الغياب في ظلّ هذا الحاضر تطالعنا الرواية بلسان المراسل عبد الرحيم فقراء: « نحن في منتصف النهار، والمكاتب الحكومية خاوية الآن. وإنّكم لعلى علم، بأنّ مسابقات الهجن استمرت حتى فجر اليوم تحت الأنوار الكاشفة، كما أنّ السواحل الأوروبية، وخاصة الإسبانية، تستوعب عددا غير قليل من أولي الأمر بعد سنة كاملة، من السهر الدءوب على سير الأمور، خاصة تعبيد الطرقات، ثم حفرها وإعادة تعبيدها» (الرواية. ص:35).

وإذا كان هذا الغياب غيابا داخليا، فإنّ "وطار" لم يقف في تصويره عند هذا الحد بل رسم إلى جانب ذلك ملامح الغيابات السياسية العربية على المستوى الخارجي، أي على مستوى العلاقات العربية . العربية، والعربية . العالمية، أمّا بالنسبة للأولى فجسدها بالأمين العام للجامعة العربية الذي كان في خضم السواد الذي اجتاح الوطن العربي بعيدا على الساحة غائبا عنها يقول المراسل: «وفي كل مرة، يقال لنا، إنّ الأمين العام، لم يخرج بعد من الحمام. (...) أمّا مساعدوه فهواتفهم مشغولة» (الرواية. ص: 45)، أمّا الغياب العالمي فصوره بالموقف العربي المنتظر لتحليلات الغرب لظاهرة السواد بغية تبنّيها، فاتهموا مع إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية طهران والقاعدة وغيرها ممن اتهموهم بخلق هذا السواد بالرغم من أنّ القضية قضية عربية وتحتاج إلى تحليل داخلي وحلول داخلية، الأمر الذي استتبع فيما بعد إقصاء الدول العربية من قائمة المتعاملين معهم وبخاصة بعد نفاد بترولهم.

2- إيديولوجية الرفض والسعي نحو التغيير:

لقد شكّلت الرواية قيد الدراسة محطة تجاذب وتنافر، ومرتعا للمواجهة والحوار، بين مواقف متعددة، وأطراف مختلفة، سياسية وغير سياسية، وهو ما ولّد نسقا فكريا متجانس الطرح، يعتمد خطابه على إيديولوجية الرفض المكونة لصورة موقف من الحاضر هو الواقع العربي والإسلامي المعيش.

إنّ أوّل ملاحظة يمكن تسجيلها في سياق الحديث عن إيديولوجية الرفض في الرواية هي قوة حضورها، وفي هذا تعبير واضح على نوع الواقع الذي يحياه العربي اجتماعيا، وثقافيا، واقتصاديا، وحضاريا ... فكونت بذلك رواية الدعاء . انطلاقا من هذا الواقع . خلفية فكرية متجانسة، تعلن فيها الرفض وتنشد التغيير، وهو ما جسدته على مستوى بنيتها السردية في ثلاث مراحل جاءت على النحو التالي:

- وعي الشخصية بواقعها أو بجانب من جوانبه.

- رفضها لهذا الواقع ←(تشكيل إيديولوجيا).
- السعي إلى تغييره جذريا أو التعديل فيه من أجل مستقبل أفضل.

ووفقا لهذا الترتيب تحركت الشخصيات الفاعلة في المسار السردي للنص بغية تحقيق ما تريد، وقد تمثّل مجال فعلها الخاص بإيديولوجية الرفض والتغيير في محور رئيس هو المحور الحضاري. وشخصية هذا المحور شخصية واعية بعمق واقعها، شخصية مثقفة ترفض الموقع العربي والإسلامي في خارطة العالم الحضارية، وترفض معه راهنها المغترب الشاخص في مفترق الطرق ولأنّ رأس المتهمين بهذا التخلف، هو الغرب، الوجه الآخر من حيرتنا، فقد كان حضوره قائما في الرواية، إن بالتلميح أو بالتصريح، فالغرب تأكيد لتأخر العرب، "هو الحلم، وهو الترجمة الحسابية لما يفصل العرب عن التاريخ الراهن من مسافات شاسعة رغم وجودهم الشكلي فيه. وهو أخيرا الحكم الصارم البارد بأنّه لم يعد بالإمكان للعربي والمسلم إلاّ أن يكون في الدرجة الثانية على الأقل، لأنّ حضارة الغرب أو مدنيتهم بمثابة النموذج العالمي الأوّل الشديد الإغراء ثابت الجدوى والفاعلية. لذلك رأى العربي في التجربة الغربية أوّل اختيار ممكن، ولعلّه الاختيار الوحيد المتاح"[18].

لقد رفضت الرواية هذا الاختيار لأنّه بالنسبة إليها نموذج لا يمكن أن يبثّ في جسد الأمة إلاّ الفساد، فكلّ المواجهات المسلحة، والحروب الطاحنة، والجدالات العقيمة والمتواصلة، والتي هي مركز الوباء العربي والإسلامي كان مصدرها الغرب، وحول هذا الوباء جاء على لسان الولي: «لقد عمّ ليس فقط العالم العربي إنّما كل العالم الإسلامي. زمن صار فيه العرب والمسلمون جندا للمسيحيين، يحملون أسلحتهم ويلبسون ألبستهم، ويروجون لعقائدهم» (الرواية. ص: 25)، وفي هذا إشارة إلى الانسلاخ عن الهوية والاغتراب الذي يعيشه المسلم والعربي في الموقع الحضاري الذي يشغله، الموقع الذي ورثه عن إنسان ما بعد الموحدين أبا عن جد، لذا لم يجد "وطار" حلاّ للواقع الأسود إلاّ المواجهة؛ مواجهة الغربي بعد رحلة تيه عربية إسلامية دامت قرونا في الصحراء، من مقام إلى مقام، من زيف إلى زيف، من أجل شيء واحد هو إحلال جيل جديد يمثل إنسان الحضارة الإسلامية، حضارة تقوّض كل شيء وتنطلق من الصفر في «زمن صار فيه الهروب إلى الفيافي، والبدء من البداية واجبا» (الرواية. ص: 25). وبهذا يكون الروائي قد أعلن عن موقفه الرافض للراهن المتخلّف الذي تحياه الأمة العربية والإسلامية خاصة وقد كشف لنا بعد الرسالة التي قرأها من تحت الظلام الدامس عن أبرز دركات هذا التخلف الذي فشل في تقويمه بما أراده من بعث للجيل الجديد بعيدا عن مراتع الحضارة الغربية.

3- الطفل الواعد:

لأنّ قوام الرواية فكريا هو مجموع الاستراتيجيات السردية المستخدمة للتعبير بطريقة فنية عن نسق ذهني معين، فقد احتاجت الرواية العربية إلى مقولات عدة وصيغ مختلفة للإفصاح عن الإجابات التي يختارها الروائي لسؤال النهضة والتقدم، ولعلّ أبرز هذه المقولات على الإطلاق مقولة "الصبي الواعد"، أي ذلك الطفل الذي ينتمي إلى مستقبله، فيرتمي في أحضانه بعيدا عن الحاضر العربي وماضيه بعيدا عن التخلف، ليكون في الرواية بمثابة البشارة، أو المهدي المنتظر، فالكل ينتظر قدومه ويأمل الخير كل الخير في كبره.

وبالعودة إلى روايتنا نجد أنّ خطابها النهضوي وإيديولوجيتها التقدمية قد رست على هذه المقولة المركزية، فاعتبرت الطفل العربي الناهض هو حلّ كل الأزمات، الحاضر منها والقادم، فكان الصبي فيها هو المرجع الذي نتجه به نحو المستقبل، البطل الموعود للزمن المجهول الأصل، المشكِّل لعالمه النفسي والقيمي والجمالي، ففيه الزمن المشتهى الكامل المنقطع تماما عن الزمن القائم.

لقد اختار وطار أن يكون صبيه جمعا، مثّله بالمريدين والمريدات، الذين أراد الولي منهم بناء عالم جديد في الفيافي، زمنه موحد منسجم، لا دنس فيه، فالمريدون حسب الولي هم المخلِّصون، والمؤسسون لجيل مسلم جديد بقيم جديدة، يرون وراء الزمن المعيش زمنا آخر، يؤمن فقط بما ينمو ويصعد ويواجه، ويرفض الثبات والسكون والقيم المسيطرة.

إنّ حضور الصبي الواعد بهذه القوة والكثافة الدلالية الإيديولوجية والبعد الجمالي المنظّم للمادة في الرواية العربية يوحي بفلسفة معينة من التقدم، وإلى نظرة مخصوصة للمستقبل السعيد المنتصر الذي ينتظره العربي، فما عجز عنه الآباء والأجداد أُوكل أمره لهذا الطفل الواعد، لا تقاعسا من قبل المجتمع عن آداء دوره في ظلّ التخلف الذي يعيشه وفي ظلّ الحوادث التاريخية والحضارية التي أحاط بها الغرب دول الشرق عموما والعرب، خصوصا بما أحضره من جيوش وأدوات إدارية ومعرفية مخضِعة، أهمها زرع الكيان الصهيوني في قلب الأمة، لكن تجاوزا لحالة الغبن التي يعرفها ويعيشها بالرغم من المحاولات الدؤوبة للتغيير والبناء، ولا أدلَّ على ذلك من السياسات الكثيرة المنتهجة في شتى المجالات من دولة عربية إلى أخرى، ولو أنَّ الكثير منها – إن لم نقل كلّها– قد باء بالفشل.

رابعا- اليوتوبيا والمستقبل:

ارتبطت كلمة اليوتوبيا في عرف المفكرين والفلاسفة منذ القدم بالأمل في غد أفضل والحلم بجنّة المستقبل، وبالرغم من كلّ ما لحق هذه الفكرة من مآس على مرِّ العصور إلاّ أنّ البشر لم يكفّوا يوما عن استدعائها، فحضورها بالنسبة إليهم في ظلّ الظّلم والاستغلال القائم غدا ضروريا كحضور الطعام والهواء والماء، يعرفها "العروي" يقول: «هي نوع من التفكير يتمحور حول تمثل المستقبل واستحضاره بكيفية مستمرة»[19]. وبالعودة إلى روايتنا نجد أنها قد أسست دلالاتها على رؤية إسلامية ويتوبيا دينية. والمقصود باليوتوبيا الدينية هو ما كان الدين فيها أساس التبصر، فترسم المستقبل الموعود متكاملا تحت ما يفرضه هذا الدّين ولا يخالفه. وقد عكست رواية "الولي الطاهر يرفع يديه للدعاء" هذه الرؤية جيدا بالرغم من جمعها لما هو ديني بالسياسي. فالموضوع العام للنص سياسي بالدرجة الأولى لكنّ الموقع المنظور منه والمنطلق الاستشرافي المستند إليه ديني سواء بالنسبة للغة التعبير الصوفية أو المكان الذي ركّز عليه الروائي وهو العالم العربي والإسلامي؛ أمّا بالنسبة للصوفية فإلى جانب أنّها طريقة فنية للتعبير هي طريقة سلوكية فردية، وحقيقة جمعوية تهدف إلى تجاوز المألوف غير المرضي إلى ماهو أكثر إرضاء، لذلك نجدها قد دعت وما زالت تدعو إلى حلول أو بناء واقع جديد يتجاوز غيره « وقد دعت إلى هذا التغيير عن طريق شفرة لغوية جديدة أيضا، لأنّها كانت دعوة خاصة بطبقة معينة من أهل الطريق – أهل الحقيقة -»[20] أمّا بالنسبة للوطن الإسلامي فالتركيز عليه دون غيره يشي بمصدر الرؤية التي تحرك الروائي، يقول "وطار" في تأشيرة العبور التي خطّها للرواية: «الولي الطاهر سواء أكان سيدي بولزمان أم الولي الطاهر، كما عبرت عنه، حسبما يبدو لي، هو العقل الباطن للإنسان المسلم المعاصر، في تجلياته العديدة، التي تتمثل في الحركات الإسلامية بشكليها الفردي أو الجماعي، في الحركية أو السكونية. كما هو في ردود الأفعال التشنجية أو الرافضة سلبا» (الرواية. ص: 9)، فالمنطلق إذن ديني إسلامي يعكس الحيرة التي يعيشها الروائي وكذا المركزية التي سيأخذها هذا الدين ليكون خلفية رئيسة للتبصر، وبناء المبتغى الذي يحلم به الولي الطاهر في النص.

وعن هذا المبتغى ترصد لنا الرواية يوتوبيا الولي وحلمه في تأسيس أمّة جديدة بعيدة عن الوباء، وقد كانت هذه الأمّة أمّة المستقبل المحصنة التي تمتثل لتعاليم الشريعة الإسلامية ذكرا وصلاة وغضا للبصر وطلبا للعلم وما إلى ذلك مما فرضه الولي على المريدين والمريدات، وذلك من أجل التأسيس لعالم إسلامي جديد قائم في مكان آخر، أو في اللامكان، يتميز بأفراده

المعزولين عن الشرور الإنسانية، وبنسق حياتي مخالف للنسق القائم، حيث يقضي أفراد هذا المجتمع الجديد أوقاتهم بما يهندس الروح ويصقل الأخلاق في جنّة يؤطرها النظام الشفاف الذي يؤسس له الدين الإسلامي.

لقد كان "وطار" وهو يسرد تفاصيل هذا العالم الجديد يعكس روح الحاضر المتناقضة محيلا على تنوير مجزوء وعلى سلطة سياسية فاسدة، لذا فقد جاءت اليوتوبيا الروائية المضمرة التي أرادها رفضا لواقع عربي وإسلامي بائس، واحتجاجا على ما تنكره المعرفة الأخلاقية وتبشيرا بمدينة أخرى، مدينة إسلامية شبيهة بالمدينة التي أسسها الرسول (صلّى الله عليه وسلم) في أوّل عهد للناس برسالته، ولعلّ هذه المفارقة الصاخبة بين الواقع من جهة والماضي الجميل والمستقبل المنشود من جهة أخرى هي ما جعلت الروائي يميل إلى السخرية من هذا الواقع العربي والإسلامي والتهكم بأهله في أكثر من موضع.

تركيب:

إنّ البحث في موضوع الاستشراف، من تجلياته البنيوية إلى تمظهراته الخارج نصية التي استبصرها الروائي وانطلق منها بغية التأسيس لرؤيا وفلسفة كلية تخصّ المستقبل العربي والإسلامي، ذلك المستقبل المليء بالتحولات والمثخن بالغموض، يكشف لنا أوّل ما يكشف عن ثراء الرواية فكريا، وإلى جانب ذلك عن روائي مبدع امتلك القدرة على الاستشراف فاستشعر الأحداث المقبلة من خلال معطيات الواقع ليسكبها بلغة جمالية في نص حمل رؤاه وشكلها سرديا بآليات فنية معبرة بذاتها عن القادم من الزمن.

كما نلحظ أيضا أنّ الروائي لم يكتف برسم صورة للمستقبل العربي والإسلامي السوداء فقط بل قام بتقديم بديل للحيلولة دون هذا المستقبل فعاد إلى التاريخ الذي كان له دوره البارز في الاستشرافات التي قدمتها الرواية، إذ كان السند والمتكأ الذي لجأ إليه الروائي لينأى عن الوقوع في أيّ استشراف كاذب، وفي الوقت نفسه الحلّ الوحيد للأمة، ففيه ـ حسب وطار المستقبل المشرق، وكأنّ الرواية بذلك تصرّح بفشل الأمة في المسار الذي تتّبعه، والذي استتبع فشل كلّ مشاريع النهضة العربية والإسلامية القائمة وهو ما جعلها تنتصر إلى الماضي بطريقة أو بأخرى للانطلاق منه، فأصبح بذلك هذا الماضي مطلوبا في ذاته مستشرفا لغد أفضل.

الهوامش والإحالات:

[1]- غاستون باشلار، جدلية الزمن، تر: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات، الجزائر، ط1، 1982، ص: 49.

[2]- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية- بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون،الكويت، ط1 ،1998. ص: 73.

[3]- عبد الصمد زايد مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1988. ص: 20.

[4]- واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986. ص: 553.

[5]- الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، منشورات الزمن، مطبعة النجاح ، الدار البيضاء، ط1، 2005. ص: 34

[6]- عبد الفتاح كليطو،الأدب والغرابة– دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2007 ص:39.

[7]- روبير بلانشي، الاستدلال، دار الكتاب الحديث، القاهرة – مصر، ط1، 2003. ص: 253

[8]- المرجع نفسه. ص: 254.

[9]- محمد الملاخ، الزمن في اللغة العربية، الدار العربية للعلوم، بيروت – لبنان، ط1، 2009. ص: 476.

[10]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط2، 2009. ص: 29.

[11]- سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، ط1، 1984. ص: 106.

[12]- المرجع السابق. ص: 27.

[13]- ابن منظور، لسان العرب، الدار المتوسطية، تونس، ط1، 2005، ج: 3، مادة : فيف. ص: 3111.

[14]- غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت – لبنان، ط2، 1984. ص: 58.

[15]- وفيق سليطين، الزمن الأبدي- الشعر الصوفي (الزمان/الفضاء/الرؤيا)، المركز الثقافي للطباعة والنشر، دمشق. ط1، 2007. ص: 127.

[16]- ويليام فان أوكونور، أشكال الرواية الحديثة، تر: نجيب المانع، دار الرشيد، بغداد – العراق، ط1، 1980. ص: 7.

[17]- الطاهر وطار، الرواية هي ملحمة الحياة، حوار أجراه معه: الخير شوار، الملحق الأدبي، جريدة اليوم الجزائرية 18 أكتوبر 2004

[18]- عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة. ص: 61.

[19]- عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط7، 2003. ص: 47.

[20]- محمد كعوان، الكتابة بين الوجودية والسريالية والصوفية، مجلة الدراسات الأدبية في الثقافتين العربية والفارسية وتفاعلهما، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت – لبنان. العدد: 13، 2005، ص: 192 .

قائمة المراجع:

(1)- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط2، 2009.

(2)- ريبر بلانشي، الاستدلال، دار الكتاب الحديث، القاهرة – مصر، ط1، 2003.

(3)- سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، ط1، 1984.

(4)- الطاهر وطار، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، منشورات الزمن، مطبعة النجاح ، الدار البيضاء، ط1، 2005.

(5)- الطاهر وطار، الرواية هي ملحمة الحياة، حوار، الملحق الأدبي، جريدة اليوم الجزائرية 18 أكتوبر 2004

(6)- عبد الصمد زايد مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1988.

(7)- عبد الفتاح كليطو، الأدب والغرابة– دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 4، 2007.

(8)- عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط7، 2003.

(9)- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية- بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون،الكويت،ط1، 1998.

(10)- غاستون باشلار، جدلية الزمن، تر: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات، الجزائر، ط1، 1982.

(11)- غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت – لبنان، ط2، 1984.

(12)- محمد كعوان، الكتابة بين الوجودية والسريالية والصوفية، مجلة الدراسات الأدبية في الثقافتين العربية والفارسية وتفاعلهما، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت – لبنان. العدد: 13، 2005.

(13)- محمد الملاخ، الزمن في اللغة العربية، الدار العربية للعلوم، بيروت – لبنان، ط1، 2009.

(14)- ابن منظور، لسان العرب، الدار المتوسطية، تونس، ط1، 2005.

(15)- واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986.

(16)- وفيق سليطين، الزمن الأبدي- الشعر الصوفي. المركز الثقافي للطباعة والنشر دمشق – سوريا، ط1، 2007.

(17)- ويليام فان أوكونور، أشكال الرواية الحديثة، تر: نجيب المانع، دار الرشيد، بغداد – العراق، ط1، 1980.